تدبر القرآن الكريم

بين الانفعال والفعل

د صالح عسكر

محاولة لاستجلاء أثر تدبر القرآن الكريم في الوجدان والعقل والأفعال في ضوء النصوص القرآنية والتوجيهات النبوية واستجابة الصحابة رضوان الله عليهم لها

بسم الله الرحمن الرحيم

حين بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الناس بالوحي هاديا، كان الفساد قد عم الأرض حتى ناءت به، ومن أجل أن يصلح هذا الفساد ويبدل وجه الدنيا، أمد الله الرجل اليتيم الوحيد الذي نشأ في أمة أمية مشتتة متعادية ترزح في الجاهلية، بالسلاح الذي لا يغلب ولا يقهر ولا يمحى ولا يغسله الماء، والذي تمثل في هذا الكتاب العظيم: "القرآن الكريم" كما صور ذلك حديث مسلم:" وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ"[1].

ولحكمة ما، لم يكن القرآن الكريم يتنزل على قلوب سامعيه بصفة واحدة؛ فطائفة منهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، وإذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا، وتأمرهم نصوص الوحي بالمسارعة إلى الخشوع وتستبطئ ذلك منهم فيسارعون إلى الاستجابة ... وطائفة ختم الله على سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة وطبع على قلوبهم وجعل عليها أقفالا، وران عليها ما كانوا يكسبون، فلا يصل الحق إليها ولا تنفعها المواعظ، ولا هي تقلع عما ألفته واطمأنت إليه من الشرك والكفر والمعاصي والجحود.

وإن هؤلاء الذين صنع منهم القرآن الكريم أمة عظيمة –رضوان الله عليهم–، لم يكن خشوع قلوبهم لهذا الوحي حالة نفسية عابرة، وإنما كان شيئا تبدأ آثاره في الجنان، ثم تبدو على الأعين والجلود والأبدان، ولا ينقطع أثرها، بل إنه ينسحب على الأركان ثم يظل مستمرا ومتكررا ومتجددا حتى يصبح هيئة راسخة تصدر منهم بغير تكلف ولا قصد ليجعل لهم سيما في وجوهم ومشيهم وصفة حديثهم ومضمونه وسائر أحوالهم...

---

[1] صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٤/٢١٩٧

من هذا المنطلق تحاول هذه الورقة أن تطرح فكرة تدبر القرآن الكريم بين الانفعال الوجداني والتمثل الفعلي من خلال ما نص عليه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وتمثلات خير القرون الذين كانوا هم السابقين المقربين والذين حازوا الفضل في كل خير ورسموا المنهج الذي يقتدي بهم فيه كل طامح للنجاة مريد للخير.

أولا: أثر القرآن الكريم على الوجدان والعقل والجوارح:

-القرآن الكريم حقيق بأن تخشع له الجبال وتتصدع

قد ورد أنه لو قدر لكلام أن يخلع الجبال عن أماكنها ويقطع الأرض أو أن يكلم الموتى في قبورهم به لكان هذا القرآن، وأن لآياته عظمة حقيقة بأن تخشع لها الجبال وتتصدع: قال تعالى: "وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ"[الرعد: ٣١].

فلعظمة القرآن وإعجازه كاد يحدث هذا الأثر العجيب في ما هو شديد من المخلوقات كالجبال، ومع ذلك فقد كفر به خلق وصدوا عنه، قال ابن كثير :"يقول تعالى مادحا للقرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله: {ولو أن قرآنا سيرت به الجبال} أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له"[١].

[١] تفسير ابن كثير ٤/٤٦٠

فقد كادت آيات القرآن تخلع الجبال، وكذا فإنه لو أنزل عليها لتصدعت وخشعت مع أن قلوب البشر لا تفعل، قال تعالى :"لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الحشر: ٢١].

فتضمنت الآية تعظيما لأمره، وتبيينا لعلو قدره، " وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد:{لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله} أي: فإن كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله، عز وجل، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟ ولهذا قال تعالى: {وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون}"[١]، فمن تفكر علم أن في قلوب بعض الناس قسوة تفوق قسوة الجبال.

وبناء على ما سبق، فإنه يفترض حصول الخشوع في قلوب الناس عند سماع القرآن الكريم، كما نصت على ذلك الآية التي اشتملت على أمر غير مباشر بتحقيق هذا الخشوع، فعن ابن عباس قال: يقول [تعالى]: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدّع وخشع من ثِقله، ومن خشية الله، فأمر الله عزّ وجلّ الناس إذا أنزل عليهم القرآن، أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، قال: (وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون) "[٢].

ونص على ذلك القرطبي أيضا فقال:" قوله تعالى: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا) حث على تأمل مواعظ القرآن وبين أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع

---

١ نفسه ٧٨/٨

٢ تفسير الطبري ٣٠١/٢٣

تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي متشققة من خشية الله. والخاشع: الذليل. والمتصدع: المتشقق... "[١].

الخشوع أثر للخشية:

فأما الخشوع فهو أثر ظاهر ينتج عن حالة باطنية تحصل في القلب وهي الخشية، قال الفيروز آبادي :"والخشوع والاختشاع: الخضوع. وقيل: قريب من الخضوع. وقيل: الخضوع في البدن والخشوع في الصوت والبصر. والخشوع: السّكون والتذلُّل والضراعة والسّكوت. وقيل: أَكثر ما يستعمل فيما يوجد في الجوارح، والضَّراعة أَكثر ما يُستعمل فيما يوجد في القلب. ورُوي: إِذا ضَرَع القلبُ خشع الجوارح "[٢].

ويلاحظ أن الآية قد جعلت الخشوع والتصدع أثرا ناتجا عن الخشية. و "الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله:" إنما يخشى الله من عباده العلماء""[٣].

وقد استعمل الخشوع في القلب في قوله تعالى:" أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ "[الحديد: ١٦]. وهو " الاخبات والتطامن ، وهي هيئة تظهر في الجوارح متى كانت في القلب، فلذلك خص تعالى القلب بالذكر. وروى شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أول ما يرفع من الناس الخشوع»"[٤] .

---

١ تفسير القرطبي ٤٤/١٨

٢ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي ٥٤١/٢

٣ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٢٨٣

٤ تفسير ابن عطية ٢٦٤/٥

كما وصف بالخشوع أنبياء الله عليهم السلام في قوله تعالى:" إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ "[الأنبياء: ٩٠] ومعنى " الخاشعين ":" الذين اتصفوا بالخشوع ... وهو سكون وانقباض عن التوجه إلى الإباية أو العصيان "[١]، " فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفا من الوقوع في الإثم "[٢].

ظهور الخشوع على الجوارح

كما نسبت آيات من القرآن الكريم الخشوع للوجوه والأبصار والأصوات، في آيات تصف أحوال المجرمين يوم القيامة:

قال تعالى:" وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ"[الغاشية: ٢]:" أي ذليلة "[٣].

وقال تعالى:" خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ " أَي مُطْرِقة في نظرها"[٤].

وقال تعالى:" يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً"[طه:١٠٨]. ومعنى :"خَشَعَتِ الْأَصْواتُ:" سكنت وذلت وخضعت وضعفت، والمراد به أصحاب الأصوات، وقيل خضعت الأصوات من شدة الفزع "فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً": وهو الصوت الخفي، قال ابن عباس: هو تحريك الشفاه من غير نطق، وقيل: أراد بالهمس صوت وطء الأقدام إلى المحشر كصوت أخفاف الإبل"[٥].

---

١ تفسير التحرير والتنوير ٤٨٠/١

٢ تفسير الخازن ٢٤٢/٣

٣ بصائر ذوي التمييز ٥٤٢/٢

٤ نفسه

٥ تفسير الخازن ٢١٣/٣

فالخشوع أثر للخشية وهي حالة قلبية يظهر أثرها على الجوارح فيخشع القلب وتخشع الوجوه والأبصار والأصوات. ويصاحب هذا الخشوع حالة نفسية وصفها القرآن الكريم بانشراح الصدر.

الخشوع وانشراح الصدر وطمأنينة القلب:

وصف القرآن الكريم حالة نفسية تصاحب الخشوع سماها: "شرح الصدر" في قوله عز وجل :"أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ"[الزمر: ٢٢-٢٣].

ودل سياق الآيات على أن حالة الانشراح هذه مصاحبة للخشوع: فقد قابلتها الآية بصورة القلب القاسي، قال ابن كثير:" وقوله:{أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه} أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟! كقوله تعالى: {أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها} [الأنعام:١٢٢] ؛ ولهذا قال: {فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله} أي: فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم، {أولئك في ضلال مبين}"[١]، ثم أعقبت ذلك ببيان أثر القرآن على الجلود والقلوب.

ومعنى الآية:" أفمن فسح الله قلبه لمعرفته، والإقرار بوحدانيته، والإذعان لربوبيته، والخضوع لطاعته (فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) يقول: فهو على بصيرة مما هو عليه ويقين، بتنوير الحق في قلبه، فهو لذلك لأمر الله متَّبعٌ، وعما نهاه عنه منتهٍ فيما يرضيه، كمن أقسى اللهُ قلبَه، وأخلاه من ذكره، وضيَّقه عن استماع الحق، واتباع الهدى، والعمل بالصواب؟ وترَك ذكر الذي أقسى الله قلبه، وجواب الاستفهام اجتزاء بمعرفة السامعين المراد من الكلام، إذ ذكر أحد الصنفين، وجعل مكان ذكر الصنف الآخر الخبر عنه بقوله:

---

١ تفسير ابن كثير ٩٣/٧

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) ... فويل للذين جفت قلوبهم ونأت عن ذكر الله وأعرضت، يعني عن القرآن الذي أنزله تعالى ذكره، مذكرا به عباده، فلم يؤمن به، ولم يصدّق بما فيه. وقيل: (مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) والمعنى: عن ذكر الله، فوضعت "من" مكان "عن"، كما يقال في الكلام: أتخمت من طعام أكلته، وعن طعام أكلته بمعنى واحد ... هؤلاء القاسية قلوبهم من ذكر الله في ضلال مبين، لمن تأمله وتدبره بفهم أنه في ضلال عن الحق جائر "[1]. ومقابلة صورتي "منشرح الصدر مقشعر الجلد" و "قاسي القلب" تدل على أن هذا الانشراح مرتبط بالخشوع.

وكما نصت الآية على انشراح الصدر نصت أيضا على لين القلب :"ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله". و" اللين: ضد الخشونة... وقوله :"ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله" فإشارة إلى إذعانهم للحق وقبولهم له بعد تأبيهم منه "[2]. وقد يكون هذا اللين هو المنصوص عليه في قوله عز وجل :"الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ"[الرعد: ٢٨]: أي " تسكن قلوبهم وتستأنس بذكر الله "[3].

" و «طمأنينة القلوب» هي الاستكانة والسرور بذكر الله والسكون به كمالا به. ورضى بالثواب عليه وجودة اليقين "[4].

ودل قوله تعالى :"ألا بذكر الله تطمئن القلوب" على أن الطمأنينة لا تحصل إلا بذكر الله وحده. فتكون هذه الحالة النفسية من انشراح الصدر ولين القلب وطمأنينته مصاحبة لهذا الخشوع أو أثرا له.*

---

١ تفسير الطبري ٢٧٧/٢١

٢ المفردات في غريب القرآن ص٧٥٢

٣ تفسير الطبري ٤٣٢/١٦

٤ تفسير ابن عطية ٣١١/٣

* قال الرازي:" القلب كلما وصل إلى شيء فإنه يطلب الانتقال منه إلى حالة أخرى أشرف منها، لأنه لا سعادة في عالم الأجسام إلا وفوقها مرتبة أخرى في اللذة والغبطة. أما إذا انتهى القلب والعقل إلى الاستسعاد بالمعارف الإلهية والأضواء الصمدية بقي واستقر

الخشوع وانفتاح مغاليق العقل والفهم:

وهذه الحالة من الخشوع على كونها حالة نفسية في ابتدائها، فإن لها تأثيرا على حسن الفهم والإدراك والتدبر، وهي تساهم في فتح مغاليق العقل وتعين على عمق الفهم، وليست حالة عاطفية غير واعية، وقد أشار إلى ذلك ابن كثير في تعليقه على آية سورة الرعد فقال :"وقوله: {أفلم ييأس الذين آمنوا} أي: من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا {أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا} فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في النفوس والعقول من هذا القرآن، الذي لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله. وثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة" معناه: أن معجزة كل نبي انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله "[1].

وقد دل كلام ابن كثير على العلاقة بين تأثير القرآن على الوجدان وتأثيره على العقل؛ وذلك أن الله أودع فيه ما هو حقيق بأن يهدي الناس جميعا لولا موانع في نفوس سامعيه، ومع ذلك فإنه الحجة التي تجعل أتباع محمد صلى الله عليه وسلم أكثر أتباع الأنبياء يوم القيامة، وسيأتي الحديث عن هذه الموانع إن شاء الله. ولهذا الخشوع أثر على الجوارح:

الأثر على الجوارح

فلم يقدر على الانتقال منه البتة، لأنه ليس هناك درجة أخرى في السعادة أعلى منها وأكمل، فلهذا المعنى قال: ألا بذكر الله تطمئن القلوب" تفسير الرازي ١٩/ ٤٠

١ تفسير ابن كثير ٤/ ٤٦١

تنسحب هذه الحالة من الخشوع وما يصاحبها على الأركان ففي " كل شيء من الإنسان مظهر من الخشوع فمظهر الخشوع في الصوت [مثلا]: الإسرار به، فلذلك فرع عليه [في آية سورة طه] قوله [سبحانه]:" فلا تسمع إلا همسا " "[١].

وقد ذكرت آية سورة الزمر تأثير القرآن الكريم على أهل الخشية ونصت على أن جلودهم تقشعر عند سماعه، كما قال تعالى:" اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ"[الزمر: ٢٣].

ف "هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، "[٢]، وهذه الحالة ترد عليهم أولا ثم تعقبها حالة أخرى هي لين الجلود والقلوب:" "ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله" لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه ... قال السدي :"ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله" أي: إلى وعد الله"[٣].

وفي قوله عز وجل :"ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله" دليل على أن هذه القشعريرة ناتجة عن شيء في القلب وهو الخشوع والخشية؛ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال:" الوجل في القلب كإحراق السَّعَفة، أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى! قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله، فإن الدعاء يذهب بذلك"[٤].

وكما أن اقشعرار الجلد لسماع القرآن الكريم ثم لينه من تأثيرات القرآن على أهل الخشية، فإن البكاء كذلك أثر من آثاره، قال تعالى :"لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ

---

١ تفسير التحرير والتنوير ٣٠٩/١٦

٢ تفسير ابن كثير ٩٣/٧

٣ نفسه

٤ انظر تفسير الطبري ٣٨٧/١٣

أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ "[المائدة: ٨٢-٨٣].

فقد وصفت الآية هؤلاء الذين هم أقرب الناس مودة للذين آمنوا بجملة من الصفات:" منها: أن {مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا} أي: علماء متزهدين، وعُبَّادًا في الصوامع متعبدين. والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين.

ومنها: {أنهم لا يَسْتَكْبِرُونَ} أي: ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقربهم من المسلمين ومن محبتهم، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

ومنها: أنهم {إذا سَمِعُوا مَا أُنزلَ إِلَى الرَّسُولِ} محمد صلى الله عليه وسلم، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي تيقنوه ، فلذلك آمنوا وأقروا به فقالوا: {رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة وصحة ما جاءوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب "[١].

ويهمنا في هذا المقام ما وصفتهم به الآية من أن أعينهم تفيض من الدمع، و"فيض العين من الدمع"، امتلاؤها منه، ثم سيلانه منها، كفيض النهر من الماء، وفيض الإناء، وذلك سيلانه عن شدة امتلائه "[٢].

---

١ تفسير السعدي ص٢٤١

٢ تفسير الطبري ١٠/٥٠٧

وتكرر هذا الوصف في قوله تعالى:" وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)"[الإسراء].

فقد جعلت الآية من صفة هؤلاء الذين أوتوا العلم أنهم يخرون ساجدين وباكين حين تتلى عليهم آيات القرآن الكريم، وقد اشتملت الآية على وصفين ذكرا في الآية السابقة يتفرع أحدهما عن الآخر وينتج الثاني الأول وهو حصول علم سابق يؤدي إلى البكاء والسجود، ولذلك قال تعالى :"إن الذين أوتوا العلم من قبله"، وقال:" مما عرفوا من الحق": .. ففيض دموعهم، لمعرفتهم بأنّ الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله حقٌّ"[1].

وقد تضمنت آية سورة الإسراء أثرا آخر وهو السجود، قال تعالى:" قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)".

ومعنى الآية :"ف: {قُلْ} لمن كذب به وأعرض عنه: {آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا} فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاريه شيئًا، وإنما ضرر ذلك عليكم، فإن لله عبادًا غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع: {إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ سُجَّدًا} أي: يتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له. {وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا} عما لا يليق بجلاله، مما نسبه إليه المشركون. {إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا} بالبعث والجزاء بالأعمال {لَمَفْعُولا} لا خلف فيه ولا شك. {وَيَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ} أي: على وجوهم {يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ} القرآن {خُشُوعًا}"[2].

---

١ تفسير الطبري ٥٠٧/١٠

٢ تفسير السعدي ص٤٦٨

وهذا الأثر ممثلا في سجود هو المذكور أيضا في قوله تعالى:" أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا"[مريم: ٥٨]. والآية تتحدث عن أنبياء الله عليهم السلام، وقد ذكرت منهم السورة زكريا ويحي وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام أجمعين، ثم وصفتهم بأنهم إذا سمعوا آيات الله خروا ساجدين باكين، ويشبههم في ذلك "الذين أوتوا العلم" والقسيسون والرهبان الذين لا يستكبرون.

والجامع بين هذه طوائف الثلاثة كمال العلم مع صفاء القلب ونقاء السريرة، ولأنبياء الله عليهم السلام كمال ذلك، وكل من تمثل صفتهم شابههم في ذلك على قدر ما يتحقق له من صفاء القلب وكمال العلم ونقاء السريرة، ومن كان على النقيض من ذلك خالف صفتهم:" فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا "[مريم: ٥٩].

وتجدر الإشارة إلى أن الآيتين السابقتين قد نسبتا السجود حين سماع آيات الله للأنبياء كما نسبته للذين أوتوا العلم ، ويبدو أن سبب هذا السجود رغبة تلقائية تحصل في نفوسهم من استشعار عظمة منزل هذه الآيات. ومما يؤكد حصول هذه الرغبة التلقائية قصة سجود المشركين عند نزول آيات سورة النجم، ففي صحيح البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ [بن مسعود] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: " أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ "وَالنَّجْمِ"، قَالَ: فَسَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ إِلَّا رَجُلًا رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ "، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا، وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ "[١]. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّجْمِ وَسَجَدَ مَعَهُ المسْلِمُونَ وَالمشْرِكُونَ وَالجِنُّ وَالإِنْسُ»[٢].

---

١ صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب "فاسجدوا لله واعبدوا ١٤٢/٦ ح٤٨٦٣

٢ صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب "فاسجدوا لله واعبدوا ١٤٢/٦ ح٤٨٦٢

فالمشركون أنفسهم على كونهم مجاهرين بالعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومكذبين بالوحي، لم يتمالكوا أنفسهم حين سمعوه عليه الصلاة والسلام يتلو سورة النجم، فلما بلغ موضع السجدة منها سجد فخروا معه ساجدين، وهذا يدل على أن استشعار روعة هذه الآيات يحرك في نفس سامعها رغبة خفية في أن يخر ساجدا باكيا بين يدي بارئه وفاطره.

وبناء على ما سلف، فإن من آثار سماع القرآن خشوع القلب واقشعرار الجلد وفيض العين من الدمع واستشعار الرغبة في السجود وكلها نصت عليها الآيات.

صور خاطئة من التأثر بالقرآن

هذا وقد ذكر العلماء صورا غير صحيحة من التأثر بالقرآن الكريم كالغشيان والصياح، قال القرطبي:" هذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير، ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير، فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع: إنك لم تبلغ أن تساوي حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله. وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم، قال الله تعالى:" وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ". فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم، فمن كان مستنا فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالا، والجنون فنون. روى الصحيح عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبي صلى الله عليه وسلم حتى أحفوه في المسألة، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال:" سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم ما دمت في

مقامي هذا "، فلما سمع ذلك القوم أرموا ورهبوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر. قال أنس: فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فإذا كل إنسان لاف رأسه في ثوبه يبكي "[1].

وقال ابن كثير:" كان الصحابة، رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدر المعلى في الدنيا والآخرة. قال عبد الرزاق: حدثنا معمر قال: تلا قتادة، رحمه الله: {تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله}. قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان"[2]، " وروي عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال :"قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما: كيف كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله عز وجل تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم، قال عبد الله: فقلت لها إن ناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خرّ أحدهم مغشيا عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". وروي أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرّ برجل من أهل العراق ساقط فقال: ما بال هذا قالوا إنه إذا قرئ عليه القرآن أو سمع ذكر الله سقط، فقال ابن عمر: إنا لنخشى الله وما نسقط، وقال ابن عمر: إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم، ما كان هذا صنيع أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم. وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ عليهم القرآن فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطا رجليه ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإن رمى بنفسه فهو صادق"[3].

---

١ تفسير القرطبي ٦٠/١٢

٢ تفسير ابن كثير ٩٣/٧

٣ تفسير الخازن ٥٥/٤

فالخشوع أثر يحدثه سماع القرآن الكريم خاصة في نفوس أهل العلم والخشية يقشعر له الجلد وتفيض منه العين دمعا ثم يلين الجلد ويطمئن القلب وينشرح الصدر، وليس من آثاره الصرع والغشيان والصياح ونحوها... فهل يحصل هذا الخشوع بصورة تلقائية أم أن الإنسان يتكلفه ويحصل بعض مقدماته؟

هل الخشوع تلقائي أم متكلف؟

إذا كان الخشوع أثرا يفترض حصوله، فهل هو شيء يحصل بصورة تلقائية؟ أم هو أثر تعلمي وتمثلي يحصل بالتدريب واستحضار المقدمات؟

تدل الآيات السابقة على أن الخشوع وتوابعه يحصل عند بعض الناس بصورة تلقائية في حال توفر بعض المقدمات والتي وصفهم القرآن الكريم لأجلها بأنهم "أوتوا العلم"، ويشبههم أيضا "القسيسون والرهبان الذين لا يستكبرون"؛ فهؤلاء بمجرد سماعهم آيات الله تتلى عليهم ترى أعينهم تفيض من الدمع ويخرون للأذقان سجدا. ويشبه أولئك أيضا المؤمنون المذكورون في قوله عز وجل:" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ "[الأنفال: ٢]، فهؤلاء يتحرك الوجل في قلوبهم لمجرد سماعهم ذكر الله، و " الوجل شدّة الخوف، ومعناه هاهنا أن يخرجهم الوجل عن أوطان الغفلة، ويزعجهم عن مساكن الغيبة. فإذا انفصلوا عن أودية التفرقة وفاءوا إلى مشاهد الذكر نالوا السكون إلى الله– عز وجل فيزيدهم ما يتلى عليهم من آياته تصديقا على تصديق، وتحقيقا على تحقيق "[١]، ومثلهم المذكورون في قوله عز وجل:" وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) "[الحج].

قال القرطبي :"هذه الآية نظير قوله تعالى:" إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون"، وقوله تعالى:" الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني

١ تفسير القشيري ٦٠٢/١

تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله". هذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته "[1].

والنصوص السابقة تدل على أن هذا الخشوع ولواحقه من البكاء والركوع والوجل مفترضة الحصول عند سماع القرآن بصورة تلقائية، غير أن القرآن قد استبطأ حصول هذا الخشوع في نفوس المؤمنين في قوله تعالى:" أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ "[الحديد: ١٦]: أي " أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه "[2].

عن ابْنَ مَسْعُودٍ، قَالَ: " مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ} إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ "[3].

وعن ابن عباس قال:" إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن، فقال: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله}"[4].

و " عن القاسم قال: ملَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مَلَّة، فقالوا: حدِّثنا يا رسول الله. فأنزل الله تعالى: {نحن نقص عليك أحسن القصص} [يوسف:٣] قال: ثم ملُّوا مَلَّة فقالوا: حدثنا يا رسول الله، فأنزل الله تعالى: {الله نزل أحسن الحديث} [الزمر:٢٣] . ثم ملوا مَلَّة فقالوا: حدثنا يا رسول الله. فأنزل الله: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله}"[5].

---

١ تفسير القرطبي ٦٠/١٢

٢ تفسير ابن كثير ١٩/٨

٣ صحيح مسلم، كتاب التفسير، باب قوله تعالى :"ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله..."الآية ٢٣١٩/٤ ح٣٠٢٧

٤ تفسير ابن كثير ١٩/٨

٥ تفسير ابن كثير ١٩/٨

وفي تفسير الطبري عن قتادة، قال:" ذُكر لنا أن شدّاد بن أوس كان يروي عن رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم، قال: "إن أوَّل مَا يُرْفعُ مِنَ النَّاس الخُشُوعُ"[١].

وقد وقع النص في بعض الروايات على تكلف الخشوع وبعض آثاره عند تأخر حصوله، ففي سنن ابن ماجه عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ السَّائِبِ، قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَقَدْ كُفَّ بَصَرُهُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِابْنِ أَخِي، بَلَغَنِي أَنَّكَ حَسَنُ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا، وَتَغَنَّوْا بِهِ فَمَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِهِ فَلَيْسَ مِنَّا»[٢].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا؛ فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَبْكُونَ فِي النَّارِ حَتَّى تَسِيلَ دُمُوعُهُمْ فِي خُدُودِهِمْ كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ فَيَسِيلُ» - يَعْنِي الدَّمُ - «فَتَقْرَحُ الْعُيُونُ فَلَوْ أَنَّ سُفُنًا أُزْجِيَتْ فِيهَا لَجَرَتْ»[٣] .

وفي المستدرك عن ابن أبي مليكة، قال: جلسنا إلى عبد الله بن عمرو في الحجر، فقال: «ابكوا فإن لم تجدوا بكاء فتباكوا، لو تعلمون العلم لصلى أحدكم حتى ينكسر ظهره ولبكى حتى ينقطع صوته»[٤].

وعَنْ قَسَامَةَ بْنِ زُهَيْرٍ، قَالَ: " خَطَبَنَا أَبُو مُوسَى رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ بِالْبَصْرَةِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا، فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَبْكُونَ الدُّمُوعَ حَتَّى تَنْقَطِعَ، ثُمَّ يَبْكُونَ الدِّمَاءَ حَتَّى لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهَا السُّفُنُ لَجَرَتْ "[١].

---

١ تفسير الطبري ٢٣/١٨٨

٢ سنن ابن ماجه، كِتَابُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَالسُّنَّةُ فِيهَا، بَابٌ فِي حُسْنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ ١/٤٢٤، ح١٣٣٧. قال البزار:" وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن سعد إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد، وعبد الرحمن بن أبي بكر هذا لين الحديث " انظر: مسند البزار ٤/٦٩

٣ المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي، كتاب صفة جهنم وأهلها، باب كثرة من يدخل النار من بني آدم ٤/٤٥٦ ح١٩٣٤

٤ المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب العلم ٤/٦٢٢ ح٨٧٢٣. قال الحاكم:" هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه "، ووافقه الذهبي.

وهذا الاستبطاء الوارد في الآية، بالإضافة إلى هذه الآثار يدل على أن للإنسان دخلا في تحصيل الخشوع باستحضار بعض مقدماته. فإذا تأملنا ذلك وجدنا أن الأصل في من كان عالما صافي الفطرة سليم القلب أن يتأثر بمجرد سماع القرآن الكريم، وقد تطرأ على القلب أمور لا يحصل معها هذا التأثر إلا بإزالتها واستحضار مقدمات تؤدي إلى تحققه. ومن هذه الموانع طول الأمد المذكور في الآية السابقة :"وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ "، وهي تنص على أن طول الأمد من غير خشوع القلب يؤدي إلى قسوته. " والأمد: الغاية من مكان أو زمان"[٢].

وإذا كان طول الأمد مع الغفلة مما يبعد الخشوع عن القلب ويقسّيه، فإن حسن الاستماع وحضور القلب وإلقاء السمع من هذه المقدمات التي تحصل هذا الخشوع، كما قال تعالى:" إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ "[ق: ٣٧].

قال ابن القيم في بيان شروط الانتفاع بالقرآن الكريم :"وألْقِ سَمعك واحضر حُضُور من يخاطبه بِهِ من تكلّم بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ فإنه خَاطب مِنْهُ لَك على لِسَان رَسُوله، قَالَ تَعَالَى:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد}، وَذَلِكَ أَن تَمام التَّأْثِير لما كَانَ مَوْقُوفا على مُؤثر مُقْتَض وَمحل قَابل وَشرط لحُصُول الْأَثر وَانْتِفَاء الْمَانِع الَّذِي يمْنَع مِنْهُ تضمّنت الْآيَة بَيَان ذَلِك كلّه بأوجز لفظ وأبينه وأدلّه على المُرَاد؛ فَقَوله:{إِنَّ فِي ذَلِكَ لذكرى} أشار إِلَى مَا تقدّم من أوّل السُّورَة [سورة ق] إِلَى هَهُنَا وَهَذَا هُوَ المؤثّر، وَقَوله {لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ} فَهَذَا هُوَ الْمحل الْقَابِل وَالْمرَاد بِهِ الْقلب الحيّ الَّذِي يعقل عَن الله كَمَا قَالَ تَعَالَى:{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا}: أَي حيّ الْقلب، وَقَوله {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ}: أَي وجّه سَمعه وأصغى حاسّة سَمعه إِلَى مَا يُقَال لَهُ وَهَذَا شَرط التأثّر بالْكَلَام،

١حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم ٢٦١/١

٢ تفسير التحرير والتنوير ٣٩٢/٢٧

وَقَوله:{وَهُوَ شَهِيدٌ}: أَي شَاهد الْقلب حَاضر غير غَائِب. قَالَ ابْن قُتَيْبَة: اسْتمع كتاب الله وَهُوَ شَاهد الْقلب والفهم لَيْسَ بغافل وَلَا ساه؛ وَهُوَ إِشَارَة إِلَى الْمَانِع من حُصُول التَّأْثِير وَهُوَ سَهْو الْقلب وغيبته عَن تعقّل مَا يُقَال لَهُ وَالنَّظَر فِيهِ وتأمّله، فَإِذا حصل الْمُؤثر وَهُوَ الْقُرْآن، وَالْمحل الْقَابِل وَهُوَ الْقلب الْحَيّ، وَوجد الشَّرْط وَهُوَ الإصغاء، وانتفى الْمَانِع وَهُوَ اشْتِغَال الْقلب وذهوله عَن معنى الْخطاب وانصرافه عَنهُ إِلَى شَيْء آخر، حصل الْأَثر وَهُوَ الِانْتِفَاع والتذكّر "[1].

وأما ابن كثير فقد عقد مقارنة بين المهتدين والضالين في صفة استماعهم للقرآن الكريم واستجابتهم له، قال :"هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، {ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله} لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات لأبيات، من أصوات القينات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم} [الأنفال:٢-٤] وقال تعالى: {والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا} [الفرقان:٧٣] أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

---

١ الفوائد لابن القيم ص٣

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة، رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدر المعلى في الدنيا والآخرة "[١].

وقد ذكر الفيروز آبادي صورا أخرى للمقدمات التي تستحضر لتحصيل الخشوع فقال:" وممّا يورث الخُشَوع ترقُّبُ آفات النفس والعمل، ورؤية فضل كلّ ذي فضل عليك، وتنسّم العناءِ، يعنى انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبهما؛ فإِنَّه يجعل القلب خاشعاً لا محالة لمطالعة عيوب نفسه وأَعمالها ونقائِصها: من العجْب والكِبْر والرّياء وضعف الصّدق وقلَّة اليقين وتشتت النيّة وعدم إِيقاع العمل على الوجه الَّذى ترضاه لربّك وغير ذلك من عيوب النَّفس. وأَمّا رؤية فضل كلّ ذي فضل عليك فهو أَن تراعى حقوق النَّاس فتؤدّيها ولا ترى أَنَّ ما فعلوه معك من حقوقك عليهم فلا تعاوضهم عليها فإِنَّ ذلك من رعونات النَّفس وحماقاتها، ولا تطالبهم بحقوق نفسك فالعارف لا يرى له على أَحد حَقّاً، ولا يشهد له على عيره فضلاً. فلذلك لا يعاقِب ولا يطالب ولا يضارب "[٢].

هذا ويجدر التنبيه على أن هذه الحالة من الخشوع والبكاء والسجود وما يصاحبها ليست هي المقصد النهائي، بل هي مقدمة للتمثل الفعلي لأوامر القرآن الكريم وأحكامه.

الخشوع وتهذيب النفس وإصلاح العمل:

ورد تفسير الخشوع بالانقياد ومؤداه أن حقيقة الخشوع مفضية إليه، قال الفيروز آبادي:" وقيل: الخشوع الاستسلام للحُكْمين، أَعني الحكم الدّيني الشَّرعي؛ فيكون معناه عدم معارضته برأي أو غيره، والحُكْم القَدَري وهو عدم تلقِّيه بالتسخُّط والكراهة والاعتراض؛ والاتِّضاعُ -أعني اتِّضاع القلب والجوارح

---

١ تفسير ابن كثير ٩٣/٧

٢ بصائر ذوي التمييز ٥٤١/٢

وانكسارَها لنظر الرّبّ إليها واطّلاعِه على تفاصيل ما في القلب والجوارح. فخوف العبد في هذا المقام يوجب خشوع القلب لا محالة. وكلّما كان أَشدّ استحضاراً له كان أَشدّ خشوعاً. وإنّما يفارق القلبَ الخشوعُ إذا غفل عن اطّلاع الله تعالى ونظره إليه"[1]. وقال ابن عاشور :"والمراد بالخاشع .. الذي ذلل نفسه وكسر سورتها وعودها أن تطمئن إلى أمر الله وتطلب حسن العواقب وأن لا تغتر بما تزينه الشهوة الحاضرة فهذا الذي كانت تلك صفته قد استعدت نفسه لقبول الخير"[2].

وقد ربط الطبري – عند تفسيره لقوله تعالى :"إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم "الآية- بين وجل القلب والانقياد لأمر الله سبحانه وتعالى، قال:" يقول تعالى ذكره: ليس المؤمن بالذي يخالف الله ورسوله، ويترك اتباعَ ما أنزله إليه في كتابه من حدوده وفرائضه، والانقياد لحكمه، ولكن المؤمن هو الذي إذا ذكر الله وَجِل قلبه، وانقاد لأمره، وخضع لذكره، خوفًا منه، وفَرَقًا من عقابه، وإذا قرئت عليه آيات كتابه صدّق بها، وأيقن أنها من عند الله، فازداد بتصديقه بذلك، إلى تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك، تصديقًا. وذلك هو زيادة ما تلي عليهم من آيات الله إيَّاهم إيمانًا، "وعلى ربهم يتوكلون"، يقول: وبالله يوقنون، في أن قضاءه فيهم ماضٍ، فلا يرجون غيره، ولا يرهبون سواه"[3]، كما نص ابن كثير على أن ثمرة هذا الوجل العمل بالأوامر:" {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم} فأدوا فرائضه"[4]. ومثل ذلك ما ورد عن السدي من أن الوجل حابس عن الوقوع في المآثم:" عن سفيان قال: سمعت السدي يقول في قوله: "إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم"، قال: هو الرجل يريد أن يظلم -أو قال: يهمّ بمعصية- أحسبه قال: فينزع عنه "[5].

---

١ نفسه

٢ تفسير التحرير والتنوير ٤٨٠/١

٣ تفسير الطبري ٣٨٥/١٣

٤ تفسير ابن كثير ١١/٤

٥ تفسير الطبري ٣٨٧/١٣

وكما أن الخشوع يؤدي إلى الانقياد واجتناب النواهي، فإن انعدامه يؤدي إلى انتهاك حرمات الله، وقد ذكرت سورة مريم في مقابل الذين يخرون سجدا وبكيا قوما أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وهو دليل على أن ذهاب الخشوع متوافق مع الجرأة على حرمات الله :"فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا "[مريم: ٥٩].

كما عللت الآية الأمر بالمسارعة إلى الخشوع في قوله تعالى:" ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق " بمبادرة قسوة القلب التي حلت بأهل الكتاب فجعلت كثيرا منهم فاسقين :"ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم"، ف " نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمنا قليلا ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد. " وكثير منهم فاسقون " أي: في الأعمال، فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة. كما قال: {فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به} [المائدة:١٣] ، أي: فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه، وتركوا الأعمال التي أمروا بها، وارتكبوا ما نهوا عنه؛ ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية "[1].

ونص ابن عاشور على أن ترك الخشوع مورث للنسيان الذي جرأ بني إسرائيل على انتهاك حرمات الله وأنهم حين استمروا على ذلك ألفوه فأصبح ديدنا لهم، قال:" والمعنى: أنهم نسوا ما أوصوا به فخالفوا أحكام شرائعهم ولم يخافوا عقاب الله يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا فنبذوه وراء ظهورهم

١ تفسير ابن كثير ٢١/٨

واشتروا به ثمنا، وصار ديدنا لهم رويدا رويدا حتى ضرئوا بذلك، فقست قلوبهم، أي تمردت على الاجتراء على تغيير أحكام الدين"[1].

وقسوة القلب هذه قد تفضي بصاحبها إلى الكفر فلا يبقى له من الإسلام إلا ظاهره وهو في باطنه كافر، فيصير عند ذلك منافقا، وروى ابن جرير عن ابن عباس كلاما يفيد ظاهره أن قسوة القلب شيمة المنافقين لذلك حذر المؤمنون من الوقوع فيها: عن ابن عباس في قوله تعالى :"إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم"، قال:" المنافقون، لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلّون إذا غابوا، ولا يؤدُّون زكاة أموالهم. فأخبر الله سبحانه أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: "إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم"، فأدوا فرائضه، "وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا"، -يقول: تصديقًا- "وعلى ربهم يتوكلون"، يقول: لا يرجون غيره"[2].

ومن أشنع ما أفضت إليه قسوة القلب، الجرأة على تبديل آيات الله وتحريفها، كما قال تعالى:" فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"[المائدة:١٣].

والآية نص على أن قسوة القلب هي التي جرأتهم على تحريف الكلم عن مواضعه. وروى ابن جرير أيضا " عن إبراهيم [النخعي] قال: جاء عتريس بن عرقوب إلى ابن مسعود، فقال: يا عبد الله هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر، فقال عبد الله: هلك من لم يعرف قلبه معروفا، ولم ينكر قلبه منكرا، إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد، وقست قلوبهم اخترعوا كتابا من بين أيديهم وأرجلهم، استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم، وقالوا: نعرض بني إسرائيل على هذا الكتاب، فمن آمن به تركناه، ومن كفر

١ تفسير التحرير والتنوير ٣٩٢/٢٧
٢ تفسير الطبري ٣٨٦/١٣

به قتلناه، قال: فجعل رجل منهم كتاب الله في قرن، ثم جعل القرن بين ثندوتيه ؛ فلما قيل له: أتؤمن بهذا؟ قال: آمنت به، ويوميء إلى القرن الذي بين ثندوتيه، ومالي لا أومن بهذا الكتاب، فمن خير مللهم اليوم ملة صاحب القرن "[1].

ليس الخشوع حالة نفسية عابرة:

وبناء على ما سبق، فإن الخشوع ليس حالة نفسية عابرة وإن كان مبتدأه خشية وقشعريرة وبكاء، بل إن هذه الحالة مقدمة لقمع النفس وإسكات شهوتها وقهر هواها، وينتج عن ذلك انفتاح مغاليق العقل والفهم والإدراك التي تجعل الخاشع فاقها لأوامر الله ونواهيه مسارعا إلى الاستجابة لها، ويؤدي تجدد هذا الحال إلى تجدد هذه المسارعة حتى تصير هذه الاستجابة حالة آلية راسخة.

وتنتج هذه الاستجابة للخاشعين سيما تبدو على وجوههم :"سيماهم في وجوههم من أثر السجود"، وتبرز في صفة مشيهم :"وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا"، وتتصور في ما تميل إليه أو تميل عنه نفوسهم :"والذين هم عن اللغو معرضون" ... وبالجملة فإنها تطبعهم بطباع تصير لهم هيئات راسخة تصدر عنهم من غير تكلف أو تصنع.

وعليه فالمقصود النهائي لهذا الخشوع والتدبر هو تهذيب النفس وإصلاح العمل، ويحصل هذا التهذيب من القراءة على مكث :"وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا"، وحالة الخشوع والتدبر هذه ينتج عنها التذكير المستمر بالمنهج وما يصاحب ذلك من استشعار التقصير والحياء والرغبة والرهبة واستحضار المعاني وتجدد التوبة والعزم على اللزوم، وغايته النهائية تحقيق التقوى والاستقامة.

---

١ نفسه ١٨٨/٢٣

هذا ولتدبر القرآن أثر عظيم آخر، وهو أنه يعيد القلب القاسي إلى الحياة كما تحيي الأرض الموات بماء المطر :"اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون"، و " فيه إشارة إلى أنه تعالى، يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال"[١].

١ تفسير ابن كثير ٢١/٨

الخاتمة:

وفي الختام هذه أهم النتائج المستخلصة من هذا البحث:

١- لو قدر لكلام أن يخلع الجبال عن أماكنها ويقطع الأرض ويكلم الموتى به في قبورهم لكان هذا القرآن.

٢- لو أنزل القرآن على الجبال لتصدعت وخشعت وقلوب البشر لا تفعل.

٣- الخشوع أثر ظاهر ينتج عن حالة باطنية تحصل في القلب وهي الخشية.

٤- يظهر الخشوع على الوجوه والأبصار والأصوات وسائر الجوارح.

٥- يصاحب الخشوع حالة نفسية وصفها القرآن الكريم بانشراح الصدر.

٦- من آثار الخشوع لين القلب وطمأنينته لذكر الله.

٧- الخشوع على كونه في مبدئه حالة نفسية، له تأثير على حسن الفهم والإدراك والتدبر، ويساهم في فتح مغاليق العقل ويعين على عمق الفهم، وليس حالة عاطفية غير واعية.

٨- تنسحب هذه الحالة من الخشوع على الأركان فتقشعر الجلود ثم تلين لذكر الله، وتفيض العيون دمعا، ويخر العبد لله ساجدا.

٩- تتجلى هذه الصفات في من اتصف بكمال العلم مع صفاء القلب ونقاء السريرة، ولأنبياء الله عليهم السلام كمال ذلك، وكل من تمثل صفتهم شابههم في ذلك على قدر ما يتحقق له من صفاء القلب وكمال العلم ونقاء السريرة، ومن كان على النقيض من ذلك خالف صفتهم.

١٠- الزعيق والزئير والصياح والغشيان ونحوها ليست من صفات الخاشعين، ولا اتصف بها الموفقون والقدوة كأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١١- الأصل فيمن كان عالما صافي الفطرة سليم القلب أن يتأثر بمجرد سماع القرآن الكريم، وقد تطرأ على القلب أمور لا يحصل معها هذا التأثر إلا بإزالتها واستحضار مقدمات تؤدي إلى تحققه.

١٢- من هذه الموانع التي تقسي القلب وتبعد الخشوع منه طول الأمد مع الغفلة، وحسن الاستماع وحضور القلب وإلقاء السمع من هذه المقدمات التي تحصل هذا الخشوع.

١٣- ليس الخشوع حالة نفسية عابرة وإن كان مبتدأه خشية وقشعريرة وبكاء، بل إن هذه الحالة مقدمة لقمع النفس وإسكات شهوتها وقهر هواها، وينتج عن ذلك انفتاح مغاليق العقل والفهم والإدراك التي تجعل الخاشع فاقها لأوامر الله ونواهيه مسارعا إلى الاستجابة لها، ويؤدي تجدد هذا الحال إلى تجدد هذه المسارعة حتى تصير هذه الاستجابة حالة آلية راسخة.

١٤- تنتج هذه الاستجابة للخاشعين سيما في وجوههم، وتبرز في صفة مشيهم، وتتصور في ما تميل إليه أو تميل عنه نفوسهم ... وتطبعهم بطباع تصير لهم هيئات راسخة تصدر عنهم من غير تكلف أو تصنع.

١٥- المقصود النهائي لهذا الخشوع والتدبر هو تهذيب النفس وإصلاح العمل، ويحصل هذا التهذيب من القراءة على مكث، وحالة الخشوع والتدبر ينتج عنها التذكير المستمر بالمنهج وما يصاحب ذلك من استشعار التقصير والحياء والرغبة والرهبة واستحضار المعاني وتجدد التوبة والعزم على اللزوم، وغايته النهائية تحقيق التقوى والاستقامة.

١٦- لتدبر القرآن أثر عظيم آخر، وهو أنه يعيد القلب القاسي إلى الحياة كما تحيي الأرض الموات بماء المطر.